الكتاب الأوَّل

تعظيمُ العِلمِ

تصنيفُ

صالح بن عبد الله بن حمد العُصيمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ما عظَّمه معظِّمٌ، وسار إليه راغبٌ متعلِّمٌ.

وأشهد ألَّا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً نبرأ بها من شَرَك الإشراك، فتوجب لنا النَّجاةَ من نار الهلاك، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، أرسله ربُّه بالهدىٰ ودين الحقِّ؛ ليظهره علىٰ الدِّين كلِّهِ ولو كره المشركون، فبلَّغ رسالته وأدَّاها، وأسلم أمانَته وأبداها.

انتصبت بدعوته أظهر الحُجج، واندفعت ببيِّناته الشُّبهات واللَّجج، فورَّثَنا المحجَّةَ البيضاء، والسُّنَّة الغرَّاءَ، لا يَتيه فيها ملتمِسٌ، ولا يُردُّ عنها مقتبِسٌ، صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلىٰ آله وصحبه عدد من تعلَّم وعلَّم.

أمَّا بعد:

فلم يزل العلم إرثًا جليلًا، تتعاقب عليه الأماثل جيلًا جيلًا، ليس لطلَّاب المعالي همٌّ سواه، ولا رغبةَ لهم في مطلوبٍ عداه، وكيف لا؟! وبه تُنال سعادةُ الدَّارين، وطيبُ العيشين.

هو شرف الوجود، ونور الأغوار والنُّجود، حِلْية الأكابر، ونُزهة النَّواظر، من مال إليه نَعِم، ومن جال به غَنِم، ومن ٱنقاد له سَلِم.

لو كان سِلعةً تُباع لَبُذِلت فيه الأموال العظام، أو صُعِّد في السَّماء لسَمَت إليه نفوس الكرام.

هو من المتاجر أربحها، وفي المفاخر أشرفها، أكرم المآثر مآثره، وأحمدُ الموارد موارده، فالسَّعيد من حضَّ نفسه عليه، وحثَّ رِكاب روحه إليه، والشَّقيُّ من زَهِد فيه أو زهَّد، وأبعد عنه أو بعَّد، أنفُه بأريج العلم مزكومٌ، وخَتْم القفا (هٰذا عبد محرومٌ).

والعلمُ يدخُل قلبَ كلِّ موفَّقٍ
من غير بوَّابٍ ولا ٱستئذانِ

ويَردُّه المحرومُ من خِذلانه
لا تُشْقِنا اللَّهمَّ بالحرمانِ

وإنَّ ممَّا يملأُ النَّفس سرورًا، ويشرح الصَّدر ويُمِدُّه نورًا؛ إقبالَ الخلق علىٰ مقاعد التَّعليم، وتلمُّسَهم صراطَه المستقيم.

وأدلُّ دليلٍ وأصدَقُه: تكاثرُ الدُّروسِ العلمية، وتوالي الدَّوراتِ التَّعليمية، حلاوةً في قلوب المؤمنين، وشجًى في حلوق الكفرة والمنافقين، فالدُّروس معقودةٌ، والرُّكب معكوفةٌ، والفوائد

شارقةٌ، والنُّفوس تائقةٌ، الأشياخُ ينثِلُون دُرَرَ العلم، والتَّلامذةُ ينظِمون عِقده.

وإنَّ من الإحسان إلىٰ هٰذه الجموع الصَّاعدة، والأجيال الواعدة، إرشادَها إلىٰ سرِّ حِيازة العلم الَّذي يُظفرها بمأمولها، ويُبلِّغها مأمنها؛ رحمةً بهم من الضَّياع في صحراء الآراء، وظلماء الأهواء.

وإعمالًا لهٰذا الأصل؛ جَمُل الحديث ـ أيُّها المؤمنون ـ عن تعظيم العلم؛ فإنَّ حظَّ العبد من العلم موقوفٌ علىٰ حظِّ قلبه من تعظيمه وإجلاله، فمن ٱمتلأ قلبه بتعظيم العلم وإجلاله صلُح أن يكون محلًّا له، وبقدر نقصان هيبة العلم في القلب، ينقص حظُّ العبد منه، حتَّىٰ يكون من القلوب قلبٌ ليس فيه شيءٌ من العلم.

فمن عظَّم العلم لاحت أنواره عليه، ووفَدَت رُسل فنونه إليه، ولم يكن لِهمَّته غايةٌ إلا تَلقِّيه، ولا لنفسه لذَّةٌ إلا الفكرُ فيه، وكأنَّ أبا محمَّدٍ الدَّارميَّ الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَمَحَ هٰذا المعنىٰ، فختم كتاب العلم من سننه المسمَّاة بـ«المسند الجامع» ببابٍ في إعظام العلم.

وأعونُ شيءٍ علىٰ الوصول إلىٰ إعظام العلم وإجلاله: معرفةُ معاقد تعظيمه، وهي الأصول الجامعة، المحقِّقَةُ لعظمة العلم في القلب، فمن أخذ بها كان معظِّمًا للعلم مُجِلًّا له، ومن ضيَّعها

فلنفسه أضاع، ولِهَواه أطاع، فلا يلومنَّ ـ إن فتر عنه ـ إلَّا نفسه، (يداك أوْكَتَا وفوك نفخ)، **ومن لا يُكرمُ العلمَ لا يُكرمه العلمُ.**

وسنأتي بالقول ـ بإذن الله ـ علىٰ عشرين معقِدًا، يُعظَّم بها العلم، من غير بسطٍ لمباحثها؛ فإنَّ المقام لا يحتمل، والإتيان علىٰ غاية كلِّ معقِدٍ يحتاج إلىٰ زمن مديدٍ، والمراد هنا التَّبصرة والتَّذكير، **وقليلٌ يبقىٰ فينفع خيرٌ من كثيرٍ يُلقىٰ فيرفع.**

فخذ من هٰذه المعاقد بالنَّصيب الأكبر، تنلِ الحظَّ الأوفر من رياض الفنون وحدائق العلوم، وإيَّاك والإخلادَ إلىٰ مقالة قومٍ حُجِبت قلوبهم، وضَعُفت نفوسهم، فزعموا أنَّ هٰذه الأحوال غلوٌّ وتنطُّع، وتشدُّدٌ غيرُ مقنع؛ فقد ضُرِب بينهم وبينها بسورٍ له باب، باطنه فيه الرَّحمة، وظاهره من قِبَله العذاب.

فليس مع هٰؤلاء علىٰ دعواهم من أدلَّة الشَّرع ما يُصدِّقها، ولا من شواهد الأقدار ما يُوثِّقها، وإنَّما هي عذر البليد، وحُجَّةُ العاجز.

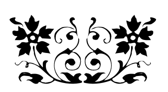
فأين الغلوُّ والتَّنطُّع من شيءٍ الوحيُ شاهده، والرَّعيل الأوَّل سالكه؟! فكلُّ معقِدٍ منها ثابتٌ بآيةٍ محكمَةٍ، أو سُنَّةٍ مصدَّقةٍ، أو آثارٍ عن خير القرون الماضية.

فإذا وَثِقْتَ بصدقها، وعقَلْتَ خُبْرها وخَبَرها، فلا تقعُد

هِمَّتُك بخُطبة الكسل والتَّواني، تتسلَّل إليها وهي تُجَلجِل: (هٰذه أحوال من مضىٰ، من سلف الأُمَّة وخير الورىٰ، فأين الثَّرىٰ من الثُّريا؟) بل من سمت نفسه إلىٰ مقاماتهم أدركها:

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلَهمْ
إنَّ التَّشبُّهَ بالكرِام فلاحُ

فأشهِد قلبك هٰذه المعاقد، وتدبَّر منقولها ومعقولها، واستنبِط منطوقها ومفهومها، **فالمباني خزائن المعاني**.



المعقِد الأوَّل

تطهير وعاء العلم

وهو القلب؛ فإنَّ لكل مطلوبٍ وعاءً، **وإنَّ وعاء العلم القلب، ووسخ الوعاء يُعكِّره ويُغيِّر ما فيه**، وبحسب طهارة القلب يدخله العلم، وإذا ٱزدادت طهارته ٱزدادت قابليَّته للعلم، **ومَثَلُ العلم في القلب كنور المصباح، إن صفا زجاجُه شعَّت أنواره، وإن لطَّخته الأوساخ كَسَفت أنواره.**

فمن أراد حيازة العلم فليُزيِّن باطنه، ويُطهِّرْ قلبه من نجاسته؛ **فالعلم جوهرٌ لطيفٌ، لا يَصلُح إلَّا للقلب النَّظيف.**

وطهارة القلب ترجع إلىٰ أصلين عظيمين:

أحدهما: طهارته من نجاسة الشُّبهات.

والآخر: طهارته من نجاسة الشَّهوات.

ولِمَا لطهارة القلب من شأنٍ عظيمٍ، أُمِر بها النَّبيُّ ﷺ في أوَّل ما أُمِر؛ في قوله تعالىٰ في سورة المدَّثِّر: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾

في قول من يُفسِّر الثِّياب بالباطن، وهو قولٌ حسنٌ، له مأخذٌ صحيحٌ.

وإذا كنت تستحي من نظر مخلوقٍ مثلك إلىٰ وسخ ثوبك، فاستحِ من نظر الله إلىٰ قلبك، وفيه إحَنٌ وبلايا، وذنوبٌ وخطايا.

قال مسلم بن الحجَّاج: حدثنا عمرو النَّاقد، حدثنا كثير ابن هشام، حدثنا جعفر بن بُرقان، عن يزيدَ الأصمِّ، عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، ولٰكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**».

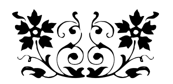
واحذرْ كمائنَ نفسك اللَّاتي متىٰ
خرجت عليك كُسِرْتَ كسرَ مُهانِ

من طهَّر قلبه فيه العلم حَلَّ، ومن لم يرفع منه نجاسته وَدَعَه العلمُ وارتحل.

وإذا تصفَّحت أحوال طائفةٍ من طلَّاب العلم في هٰذا المعقِد، رأيت خللًا بيِّنًا، فأين تعظيمُ العلم من ٱمرئٍ تغدو الشَّهوات والشُّبهات في قلبه وتروح؟!

تدعوه صورةٌ محرَّمةٌ، وتستهويه مقالةٌ مجرِمةٌ، حَشْوُه المنكرات، والتَّلذُّذُ بالمحرمات، فيه غِلٌّ وفسادٌ، وحسدٌ وعنادٌ، ونفاقٌ وشقاقٌ، أنَّىٰ لهٰؤلاء وللعلم؟! ما هم منه، ولا هو إليهم.

قال سهل بن عبد الله ﵀: «حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخله النُّور، وفيه شيءٌ ممَّا يكره الله ﷻ».



المعقِد الثَّاني
إخلاص النِّيَّة فيه

إنَّ إخلاصَ الأعمال أساسُ قَبولها، وسُلَّمُ وصولها؛ قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: الآية ٥].

وقال البخاريُّ في «الجامع المسند الصَّحيح»، ومسلمٌ في «المسند الصَّحيح» ـ واللَّفظ للبخاريِّ ـ: حدَّثنا عبد الله بن مسلمة، قال: أخبرنا مالكٌ، عن يحيىٰ بن سعيد، عن محمَّد بن إبراهيم، عن علقمةَ، عن عمرَ رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الأعمال بالنِّيَّة، ولكل ٱمرئٍ ما نوىٰ**».

وما سبَق مَن سبَق ولا وصَل مَن وصَل من السَّلف الصَّالحين، إلَّا بالإخلاص لله ربِّ العالمين.

قال أبو بكرٍ المرُّوذيُّ رحمه الله: سمعت رجلًا يقول لأبي عبد الله ـ يعني أحمدَ ابن حنبلٍ ـ وذكر له الصِّدق والإخلاص؛ فقال أبو عبد الله: «بهٰذا ٱرتفع القوم».

وإنَّما يَنال المرءُ العلمَ علىٰ قدر إخلاصه.

والإخلاص في العلم يقوم علىٰ أربعة أُصولٍ، بها تتحقَّق نيَّة العلم للمتعلِّم إذا قصدها:

الأوَّل: رفعُ الجهل عن نفسه؛ بتعريفها ما عليها من العبوديَّات، وإيقافها علىٰ مقاصد الأمر والنَّهي.

الثَّاني: رفع الجهل عن الخلق؛ بتعليمهم وإرشادهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم.

الثَّالث: إحياء العلم، وحفظه من الضَّياع.

الرَّابع: العمل بالعلم.

فالعلم شجرةٌ، والعمل ثمرةٌ، وإنَّما يُراد العلم للعمل.

ولقد كان السَّلف ـ رحمهم الله ـ يخافون فوات الإخلاص في طلبهم العلم، فيتورَّعون عن ٱدِّعائه، لا أنَّهم لم يُحقِّقوه في قلوبهم.

فهشام الدَّسْتوائيُّ ﵀ يقول: «والله، ما أستطيع أن أقول: إنِّي ذهبت يومًا أطلب الحديثَ أُريد به وجه الله ﷿».

وسئل الإمامُ أحمدُ: هل طلبت العلم لله؟ فقال: «لله! عزيزٌ، ولكنَّه شيءٌ حُبِّب إليَّ فطلبته».

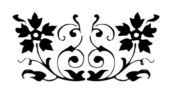
ومن ضيَّع الإخلاص فاته علمٌ كثيرٌ، وخيرٌ وفيرٌ.

وينبغي لقاصد السَّلامة أن يتفقَّد هٰذا الأصل ـ وهو الإخلاص ـ في أموره كلِّها، دقيقِها وجليلِها، سِرِّها وعَلَنِها.

ويَحمِلُ علىٰ هٰذا التَّفقُّدِ شدَّةُ معالجة النِّيَّة.

قال سفيان الثَّوريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من نِيَّتي؛ لأنَّها تتقلَّب عليَّ».

بل قال سليمان الهاشميُّ رَحِمَهُ اللهُ: «ربَّما أُحدِّث بحديثٍ واحدٍ ولي نِيَّةٌ، فإذا أتيت علىٰ بعضه تغيَّرت نيَّتي، فإذا الحديث الواحد يحتاج إلىٰ نيَّاتٍ».



المعقِد الثَّالث

جمع هِمَّة النَّفس عليه

فإنَّ شَعَث النَّفس إذا جُمع علىٰ العلم التأمَ واجتمع، وإذا شُغل به وبغيره ٱزداد تفرُّقًا وشتاتًا، وإنَّما تُجمع الهِمَّة علىٰ المطلوب بتَفقُّد ثلاثة أمور:

أوَّلِها: الحرص علىٰ ما ينفع، فمتىٰ وُفِّق العبد إلىٰ ما ينفعه حَرَص عليه.

ثانيها: الاْستعانة بالله ﷻ في تحصيله.

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ
فأوَّلُ ما يجني عليه ٱجتهادُه

ثالثِها: عدم العجز عن بلوغ البُغية منه.

وقد جُمعت هٰذه الأمورُ الثَّلاثة في الحديث الَّذي رواه مسلم ابن الحجَّاج، قال: حدَّثنا أبو بكر بن أبي شيبة وابن نمير، قالا: حدَّثنا عبد الله بن إدريس، عن ربيعة بن عثمان، عن محمد بن

يحيىٰ بن حَبَّان، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**احرِصْ علىٰ ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تَعْجِزْ**».

فمن أراد جمع هِمَّته علىٰ العلم، فليُشعِل في نفسه شُعلة الحرص عليه؛ لأنَّه ينفعه، بل كلُّ خيرٍ في الدُّنيا والآخرة إنَّما هو ثمرةٌ من ثمرات العلم، وليستعن بالله عليه، ولا يعجِز عن شيءٍ منه؛ فإنَّه حينئذٍ يُدرك بغيته ويفوز بما أمَّله.

قال الجُنَيد رحمه الله: «ما طلب أحدٌ شيئًا بجدٍّ وصدقٍ إلا ناله، فإن لم يَنَلْه كلَّه نال بعضه».

الجَدُّ بالجِدِّ والحرمان بالكسلِ
فانْصَبْ تُصِب عن قريبٍ غايةَ الأملِ

فانهض بهِمَّتك واستيقظ من الغفلة؛ فإنَّ العبد إذا رُزق هِمَّةً عاليةً، فُتحت له أبواب الخيرات، وتسابقت إليه المسرَّات.

قال ابن القيِّم رحمه الله في كتابه «الفوائد»:

«إذا طلع نجم الهِمَّة في ظلام ليل البَطالة، ورَدِفه قمرُ العزيمة، أشرقت الأرض بنور ربِّها».

ومن تعلَّقت هِمَّته بمطعمٍ، أو ملبسٍ، أو مأكلٍ، أو مشربٍ، لم يَشَمَّ رائحة العلم.

واعـلَـمْ بـأنَّ الـعـلـمَ لـيـس يـنـالُـه
مَـن هَـمُّـه فـي مـطـعـمٍ أو مـلـبـسِ
فـاحـرِصْ لِـتَـبْـلُـغَ فـيـه حـظًّـا وافـرًا
واهـجـرْ لـه طـيـبَ الـمـنـامِ وغـلِّـسِ

وإنَّ ممَّا يعلي الهِمَّة ويسمو بالنَّفس: ٱعتبارَ حال مَن سبق، وتعرُّفَ هِمم القوم الماضين.

فأبو عبد الله أحمد ابن حنبل كان ـ وهو في الصِّبا ـ ربَّما أراد الخروج قبل الفجر إلىٰ حِلَق الشُّيوخ، فتأخذ أُمُّه بثيابه وتقول ـ رحمةً به ـ: «حتىٰ يُؤَذِّنَ النَّاس أو يُصبحوا».

وقرأ الخطيب البغداديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ «صحيحَ البخاريِّ» كلَّه علىٰ إسماعيل الحِيريِّ في ثلاثة مجالسَ؛ ٱثنان منها في ليلتين من وقت صلاة المغرب إلىٰ صلاة الفجر، واليوم الثَّالث من ضحوة النَّهار إلىٰ صلاة المغرب، ومن المغرب إلىٰ طلوع الفجر.

قال الذَّهبيُّ في «تاريخ الإسلام»: «وهٰذا شيءٌ لا أعلم أحدًا في زماننا يستطيعه».

رحم الله أبا عبد الله، كيف لو رأىٰ هِمم أهل هذا الزَّمان ماذا يقول؟!

وكان أبو محمَّدٍ ابنُ التَّبانِ أوَّلَ ٱبتدائه يدرس اللَّيل كلَّه، فكانت أُمُّه ترحمه وتنهاه عن القراءة باللَّيل، فكان يأخذ المصباح ويجعله تحت الجَفنة ـ شيءٍ من الآنية العظيمة ـ ويتظاهر بالنَّوم، فإذا رقدت أخرج المصباح وأقبل علىٰ الدَّرس.

وقد رأيت في بعض المجموعات الخَطِّية في مكتبةٍ نجديَّةٍ خاصَّةٍ، ممَّا يُنسب إلىٰ عبد الرَّحمن بن حسن آل الشَّيخ ـ صاحب فتح المجيد ـ قولَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شمِّر إلىٰ طلبِ العلومِ ذيولا
وانهضْ لذلك بُكرةً وأصيلا

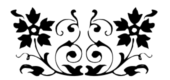
وَصِلِ السُّؤالَ وكن هُدِيت مُباحِثًا
فالعيب عندي أن تكونَ جهولا

فكن رجلًا رِجْلُه على الثَّرىٰ ثابتة، وهامةُ همَّته فوق الثُّريا سامقة، ولا تكن شابَّ البدن أشيبَ الهِمَّة؛ فإنَّ هِمَّة الصَّادق لا تشيب.

كان أبو الوفاء ابنُ عَقيل ـ أحد أذكياء العالم من فقهاء الحنابلة ـ يُنشِد وهو في الثَّمانين:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خُلُقي
ولا ولائي ولا ديني ولا كرمي

وإنَّـمـا ٱعـتـاض شـعـري غـيـرَ صِـبـغـتـه
والشَّيبُ في الشَّعر غيرُ الشَّيب في الهِممِ



المعقِد الرَّابع
صرف الهِمَّة فيه إلىٰ علم القرآن والسُّنَّة

إنَّ كلَّ علمٍ نافعٍ مردُّه إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وباقي العلوم: إمَّا خادمٌ لهما؛ فيؤخذ منه ما تتحقَّق به الخدمة، أو أجنبيٌّ عنهما؛ فلا يضُرُّ الجهل به.

فإلىٰ القرآن والسُّنَّة يرجع العلم كلُّه، وبهما أُمِر النَّبيُّ ﷺ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزُّخرُف].

وهل أُوحي إلىٰ أبي القاسم ﷺ شيءٌ سوىٰ القرآن والسُّنَّة؟!

ومن جعل علمه القرآن والسُّنَّة، كان متَّبِعًا غير مبتدعٍ، ونال من العلم أوفره.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد العلم فَلْيُثَوِّرِ القرآن؛ فإنَّ فيه علم الأوَّلين والآخِرين».

وقال مسروق رحمه الله: «ما نسأل أصحابَ محمَّدٍ ﷺ عن شيءٍ إلا علْمُه في القرآن، إلا أنَّ علمنا يقصُر عنه».

ويُنسب لابن عبَّاسٍ ﵄ أنَّه كان يُنشِد:

جـمـيـعُ الـعـلـمِ فـي الـقـرآنِ لـٰكـن
تــقــاصَــرُ عــنــه أفــهــامُ الــرِّجــالِ

وما أحسنَ قولَ عياضٍ اليَحصُبيِّ في كتابه «الإلماع»:

الـعـلـم فـي أصـلـيـن لا يـعـدوهـمـا
إلا الـمُـضِـلُّ عـنِ الـطَّـريـق الـلَّاحـبِ

عـلـمُ الـكـتـاب وعـلـم الآثـارِ الَّـتـي
قـد أُسـنـدت عـن تـابـعٍ عـن صـاحـبِ

وأعلىٰ الهمم في طلب العلم، كما قال ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتابه «الفوائد»: «طلبُ علم الكتاب والسُّنَّة، والفهمُ عن الله ورسوله نفسَ المراد، وعلمُ حدود المُنزَّل».

وقد كان هٰذا هو علم السَّلف ـ عليهم رحمة الله ـ ثم كَثُر الكلام بعدهم فيما لا ينفع، فالعلم في السَّلف أكثر، والكلام فيمن بعدهم أكثر.

قال حمَّاد بن زيد: قلتُ لأيوبَ السَّختيانيِّ: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدَّم؟ فقال: «الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدَّم أكثر».

المعقِد الخامس

سلوك الجادَّة الموصِلة إليه

لكلِّ مطلوبٍ طريقٌ يُوصل إليه، فمن سلك جادَّةَ مطلوبه أوقَفَتْهُ عليه، ومن عَدَلَ عنها لم يظفر بمطلوبه، وإنَّ للعلم طريقًا من أخطأها ضلَّ ولم يَنَلِ المقصود، وربما أصاب فائدةً قليلةً مع تعبٍ كثيرٍ.

يقول الزَّرْنُوجيُّ ﵀ في كتابه «تعليم المتعلِّم»:

«وكلُّ من أخطأ الطَّريق ضلَّ، ولا ينال المقصودَ قلَّ أو جلَّ».

وقال ابن القيِّم ﵀ في كتاب «الفوائد»:

«الجهل بالطَّريق وآفاتِها والمقصود، يوجب التَّعب الكثير مع الفائدة القليلة».

وقد ذكر هٰذا الطَّريق بلفظٍ جامعٍ مانعٍ محمَّد مرتضىٰ بن محمَّد الزَّبيديُّ ـ صاحب «تاج العروس» ـ في منظومةٍ له تُسمَّىٰ «ألفيَّة السَّنَد»، يقول فيها:

فما حوىٰ الغاية في ألفِ سَنَهْ

شخصٌ فخذ من كلِّ فنٍّ أحسنهْ

بِـحِـفْـظِ مَـتْـنٍ جَـامِـعٍ لِـلـرَّاجِـحِ
تَـأْخُـذُهُ عَـلَـىٰ مُـفِـيـدٍ نَـاصِـحِ

فطريق العلم وجادَّتُه مبنيَّةٌ علىٰ أمرين، من أخذ بهما كان معظِّما للعلم؛ لأنَّه يطلبه من حيث يُمكن الوصول إليه:

فأمَّا الأمر الأوَّل: فحفظ متنٍ جامعٍ للرَّاجح، فلا بدَّ من حفظٍ، ومن ظنَّ أنَّه يَنال العلم بلا حفظٍ فإنَّه يطلب مُحالًا.

والمحفوظ المعوَّل عليه هو المتن الجامع للرَّاجح؛ أي المعتمد عند أهل الفنِّ، فلا ينتفع طالبٌ يحفظ المغمور في فنٍّ ويترك مشهوره، كمن يحفظ «ألفيَّة الآثاريِّ» في النَّحو ويترك «ألفيَّة ابن مالك».

وأمَّا الأمر الثَّاني: فأخذه علىٰ مفيدٍ ناصحٍ، فتفزع إلىٰ شيخٍ تتفهَّمُ عنه معانيه، يتَّصف بهذين الوصفين:

وأوَّلهما: الإفادة، وهي الأهليَّة في العلم، فيكون ممن عُرف بطلب العلم وتلقِّيه حتَّىٰ أدرك، فصارت له مَلَكةٌ قويَّةٌ فيه.

والأصل في هٰذا ما أخرجه أبو داود ﵀ في «سننه» قال: حدَّثنا زهير بن حرب، وعثمان بن أبي شيبة، قالا: حدَّثنا جرير، عن الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعيد بن جبيرٍ، عن

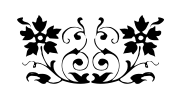
ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**تسمعون، ويُسمَع منكم، ويُسمَع ممَّن يَسمع منكم**»، وإسناده قويٌّ.

والعبرة بعموم الخطاب، لا بخصوص المخاطب، فلا يزال من معالم العلم في هٰذه الأمة أن يأخذه الخالف عن السَّالف.

أمَّا الوصف الثَّاني: فهو النَّصيحة، وتجمع معنيين ٱثنين:

أحدهما: صلاحية الشَّيخ للاقتداء به، والاهتداء بهديه ودَلِّه وسَمْته.

والآخر: معرفته بطرائق التَّعليم، بحيث يُحسن تعليم المتعلِّم، ويعرف ما يَصلُح له وما يضرُّه، وَفق التَّربية العلميَّة الَّتي ذكرها الشَّاطبيُّ في «الموافقات».



المعقِد السَّادس

رعاية فنونه في الأخذ، وتقديم الأهمِّ فالمهمِّ

إنَّ الصُّورة المستحسَنة يزيد حسنُها بتمتُّع البصر بجميع أجزائها، ويَفوت من حُسنها عند النَّاظر بقدر ما يَحتجب عنه من أجزائها، والعلم هكذا؛ من رعىٰ فنونه بالأخذ، وأصاب من كلِّ فنٍّ حظًّا كمُلت آلته في العلم.

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صيد خاطره»:

«جمع العلوم ممدوحٌ».

مـن كـلِّ فـنٍّ خُـذْ ولا تـجـهـل بـهِ
فـالـحـرُّ مُـطَّـلِـعٌ عـلـىٰ الأسـرارِ

ويقول شيخ شيوخنا محمَّد ابن مانعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «إرشاد الطُّلَّاب»:

«ولا ينبغي للفاضل أن يترك علمًا من العلوم النَّافعة، الَّتي تُعين علىٰ فهم الكتاب والسُّنَّة، إذا كان يعلم من نفسه قوَّةً علىٰ تعلُّمه، ولا يَسوغ له أن يعيب العلمَ الذي يجهله ويُزريَ بعالمه؛

فإنَّ هٰذا نقصٌ ورذيلةٌ، فالعاقل ينبغي له أن يتكلَّم بعلمٍ أو يسكت بحلمٍ، وإلَّا دخل تحت قول القائل:

أتـــانـــي أنَّ ســـهـــلًا ذمَّ جـــهـــلًا
عـــلـــومًـــا لـــيـــس يـــعـــرفـــهـــنَّ ســـهـــلُ

عـــلـــومًـــا لـــو قـــراهـــا مـــا قـــلاهـــا
ولـٰكـــنَّ الـــرِّضـــا بـــالـــجـــهـــل ســـهـــلُ

انتهىٰ كلامه.

وإنَّما تنفع رعاية فنون العلم باعتماد أصلين:

أحدهما: تقديم الأهمِّ فالمهمِّ، ممَّا يفتقر إليه المتعلِّم في القيام بوظائف العبوديَّة لله.

سئل مالك بن أنسٍ ـ إمام دار الهجرة ـ عن طلب العلم، فقال: «حَسَنٌ جميلٌ، ولٰكنِ ٱنظرِ الَّذي يلزمُك من حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي فالزمه».

قال أبو عُبيدةَ مَعْمَرُ بنُ المُثنىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من شغل نفسه بغير المهمِّ أضرَّ بالمهمِّ».

وقـــدِّم الأهـــمَّ إنَّ الـــعـــلـــم جَـــمّْ
والـــعـــمـــر طـــيـــفٌ زار أو ضـــيـــفٌ أَلَـــمّْ

والآخر: أن يكون قصده في أوَّل طلبه تحصيل مختصرٍ في كلِّ فنٍّ، حتَّىٰ إذا ٱستكمل أنواع العلوم النَّافعة، نظر إلىٰ ما وافق طبعه منها، وآنس من نفسه قدرةً عليه، فتبحَّر فيه، سواءٌ كان فنًّا واحدًا أم أكثر.

أمَّا بلوغ الغاية في كلِّ فنٍّ، والتَّحقُّق بمَلَكته، فإنَّما يُهَيَّأُ له الواحد بعد الواحد في أزمنةٍ متطاولةٍ.

ثمَّ ينظر المتعلِّم فيما يُمَكِّنه من تحصيلها إفرادًا للفنون ومختصراتها واحدًا بعد واحدٍ، أو جمعًا لها، والإفراد هو المناسب لعموم الطَّلبة.

ومن طيَّار شعرِ الشَّناقطة قولُ أحدهم:

وإن تُرِد تحصيلَ فنٍّ تمِّمهْ
وعن سواه قبل الأنتهاءِ مَهْ

وفي ترادف العلوم المنعُ جا
إن توأمانِ ٱستبقا لن يخرجا

ومن عرف من نفسه قدرةً علىٰ الجمع جمع، وكانت حاله ٱستثناءً من العموم.

ومن نواقض هٰذا المعقِد المشاهدة: الإحجامُ عن تنوُّعِ العلوم، والاستخفافُ ببعض المعارف، والاشتغالُ بما لا ينفع، مع الوَلَع بالغرائب، وكان مالكٌ يقول: «شرُّ العلم الغريب، وخير العلم الظَّاهر الَّذي قد رواه النَّاس».

المعقِد السَّابع
المبادرة إلىٰ تحصيله، واغتنام سِنِّ الصِّبا والشَّباب

فإنَّ العمر زهرة: إمَّا أن تصير بسلوك المعالي ثمرةً، وإما أن تذبُلَ، وإنَّ ممَّا تُثمر به زهرةُ العمر: المبادرةَ إلىٰ تحصيل العلم، وتركَ الكسل والعجز، واغتنامَ سِنِّ الصِّبا والشَّباب؛ ٱمتثالًا للأمر باستباق الخيرات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨].

وأيَّامَ الحداثة فاغتنمها
ألا إنَّ الحداثة لا تدومُ

قال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما شبَّهتُ الشَّباب إلَّا بشيءٍ كان في كُمِّي فسقط».

والعلم في سنِّ الشَّباب أسرع إلىٰ النَّفس، وأقوىٰ تعلُّقًا ولصوقًا.

قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلم في الصِّغر كالنَّقش في الحجر».

فقوَّة بقاء العلم في الصِّغر، كقوَّة بقاء النَّقش في الحجر، فمن ٱغتنم شبابه نال إرْبَه، وحَمِد عند مشيبه سُراه.

اغتنم سِنَّ الشَّبابِ يا فتىٰ
عند المشيب يَحْمَدُ القوم السُّرىٰ

وأضرُّ شيءٍ علىٰ الشَّباب التَّسويف وطول الأمل، فيسوِّف أحدهم ويركب بحر الأمانيِّ، ويشتغل بأحلام اليقظة، ويحدِّث نفسه أنَّ الأيَّام المستقبلَة سَتفْرُغ له من الشَّواغل، وتصفو من المكدِّرات والعوائق.

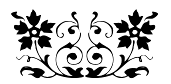
والحال المنظورة: أنَّ من كَبِرت سِنُّه كَثُرت شواغله، وعَظُمت قواطعه، مع ضعف الجسم وَوَهَنِ القوىٰ.

ولن تُدْرَك الغايات العظمىٰ بالتَّلَهُّفِ والتَّرجِّي والتَّمنِّي.

ولستُ بمدركٍ ما فات منِّي
بِلَهْفَ ولا بِلَيتَ ولا لوَ ٱنِّي

ولا يُتوهَّم ممَّا سبق أنَّ الكبير لا يتعلَّم، بل هٰؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ تعلَّموا كبارًا، ذكره البخاريُّ رحمه الله في كتاب العلم من «صحيحه»، وإنَّما يعسر التَّعلُّم في الكِبَر ـ كما بَيَّنه الماورديُّ في «أدب الدُّنيا والدِّين» ـ لكثرة الشَّواغل، وغلبة القواطع، وتكاثر العلائق، فمن قدِر علىٰ دفعها عن نفسه أدرك العلم.

وقد وقع هٰذا لجماعةٍ من النُّبلاء، طلبوا العلم كبارًا فأدركوا منه قَدْرًا عظيمًا، منهم القفَّال الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



المعقِد الثَّامن
لزوم التَّأنِّي في طلبه، وترك العجلة

إنَّ تحصيل العلم لا يكون جملةً واحدةً؛ إذ القلب يضعف عن ذلك؛ وإنَّ للعلم فيه ثِقَلًا كثِقَل الحجر في يد حامله؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المُزمِّل] أي القرآن، وإذا كان هٰذا وصف القرآن الميسَّر ـ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القَمَر: الآية ١٧] ـ؛ فما الظنُّ بغيره من العلوم؟!

وقد وقع تنزيل القرآن رعايةً لهٰذا الأمر مُنَجَّمًا مفرَّقًا باعتبار الحوادث والنَّوازل؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفُرقان].

وهٰذه الآية حجَّةٌ في لزوم التَّأنِّي في طلب العلم، والتَّدرُّج فيه، وترك العجلة؛ كما ذكره الخطيب البغداديُّ في «الفقيه والمتفقِّه»، والرَّاغب الأصفهانيُّ في مقدِّمة «جامع التَّفسير».

ومن شعر ابن النَّحاس الحلبيِّ قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اليومَ شيءٌ وغدًا مثلُهُ
من نُخب العلم الَّتي تُلْتَقطْ
يُحصِّل المرء بها حكمةً
وإنَّما السَّيل ٱجتماع النُّقَطْ

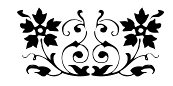
قال شعبة بن الحجَّاج: «اختلفتُ إلىٰ عمرو بن دينارٍ خمسَمائةِ مرَّةٍ، وما سمعت منه إلا مائةَ حديثٍ، في كلِّ خمسة مجالسَ حديثٌ».

وقال حمَّاد بن أبي سليمان لتلميذٍ له: «تعلَّم كلَّ يومٍ ثلاثَ مسائلَ، ولا تزدْ عليها شيئًا».

ومقتضىٰ لزومِ التَّأنِّي والتَّدرُّجِ: البَداءةُ بالمتون القصار المصنَّفةِ في فنون العلم، حفظًا واستشراحًا، والميلُ عن مطالعة المطوَّلات الَّتي لم يرتفعِ الطَّالب بعدُ إليها.

ومن تعرَّض للنَّظر في المطوَّلات فقد يجني علىٰ دينه، **وتجاوزُ الٱعتدال في العلم ربَّما أدَّىٰ إلىٰ تضييعه**، ومن بدائع الحِكَم قول عبد الكريم الرِّفاعيِّ ـ أحد شيوخ العلم بدمشقَ الشَّام في القرن الماضي ـ: «**طعام الكبار سمُّ الصِّغار**».

وصدق؛ فإنَّ الرَّضيع إذا تناول طعام الكبار، مهما لذَّ وطاب، أهلكه وأعطبه، ومِثلُه من يتناول المسائلَ الكبار من المطوَّلات، ويُوقفُ نفسه مع ضعف الآلة علىٰ خلاف العلماء، وتعدُّدِ مذاهبهم في المنقول والمعقول.



المعقِد التَّاسع
الصَّبر في العلم تحمُّلًا وأداءً

إذ كلُّ جليلٍ من الأمور لا يُدرك إلَّا بالصَّبر، وأعظم شيءٍ تتحمَّلُ به النَّفسُ طلبَ المعالي: تصبيرُها عليه؛ ولهذا كان الصَّبر والمصابرة مأمورًا بهما لتحصيل أصل الإيمان تارةً، ولتحصيل كماله تارةً أخرىٰ؛ قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٢٠٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: الآية ٢٨].

قال يحيىٰ بن أبي كثير في تفسير هٰذه الآية: «هي مجالس الفقه».

ولن يُحصِّل أحدٌ العلمَ إلَّا بالصَّبرِ.

قال يحيىٰ بن أبي كثير أيضًا: «لا يُستطاع العلم براحة الجسم».

فبالصَّبر يُخرج من معرَّة الجهل.

قال الأصمعيُّ: «من لم يحتمل ذلَّ التَّعليم ساعةً، بقي في ذلِّ الجهل أبدًا».

وبه تُدرك لذَّة العلم.

قال بعض السَّلف: «من لم يحتمل ألم التَّعليم لم يَذُق لذَّة العلم».

ولا بُدَّ دون الشَّهد من سُمِّ لَسْعَةٍ.

وكان يُقال: «من لم يركبِ المصاعب لم يَنَلِ الرَّغائب».

وصبر العلم نوعان:

أحدهما: صبرٌ في تحمُّله وأخذه؛ فالحفظ يحتاج إلىٰ صبرٍ، والفهم يحتاج إلىٰ صبرٍ، وحضور مجالس العلم يحتاج إلىٰ صبر، ورعاية حقِّ الشَّيخ تحتاج إلىٰ صبر.

والنَّوع الثَّاني: صبرٌ في أدائه وبثِّه وتبليغه إلىٰ أهله؛ فالجلوس للمتعلِّمين يحتاج إلىٰ صبرٍ، وإفهامُهم يحتاج إلىٰ صبرٍ، واحتمالُ زلَّاتهم يحتاج إلىٰ صبرٍ.

وفوق هذين النَّوعين من صبر العلم الصَّبر علىٰ الصَّبر فيهما والثَّبات عليهما.

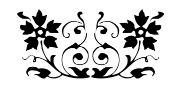
لكلٍّ إلىٰ شَأْوِ العُلا وَثَبَاتُ
ولٰكن عزيزٌ في الرِّجال ثباتُ

ومن يلزمِ الصَّبر يظفر بالرَّشد.

قال أبو يعلىٰ الموصليُّ المحدِّث:

إنِّـــي رأيـــتُ وفـــي الأيـــام تـــجـــربـــةٌ
لـلـصَّـبـر عـاقـبـةً مـحـمـودةَ الأثـرِ

وقـــلَّ مـــن جـــدَّ فـــي أمـــرٍ تَـطَـلَّـبَـه
واستصحبَ الصَّبر إلا فاز بالظَّفرِ



المعقِد العاشر

ملازمة آداب العلم

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «مدارج السَّالكين»:

«أدبُ المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقِلَّةُ أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما ٱستُجْلِبَ خير الدُّنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا ٱستُجْلِب حرمانهما بمثل قِلَّة الأدب».

والمرء لا يسمو بغير الأدبِ
وإن يكن ذا حَسَبٍ ونسبِ

وإنَّما يصلُح للعلم من تأدَّب بآدابه في نفسه ودرسه، ومع شيخه وقرينه.

قال يوسف بن الحسين: «بالأدب تفهم العلم».

لأنَّ المتأدِّب يُرىٰ أهلًا للعلم فَيُبذلُ له، وقليل الأدب يُعزُّ العلمُ أن يُضيَّعَ عنده.

سأل رجل البُقاعيَّ أن يقرأ عليه، فأذِن له البُقاعيُّ، فجلس

الرجل متربِّعًا، فامتنع البُقاعيُّ من إقرائه، وقال له: «أنت أحوج إلىٰ الأدب منك إلىٰ العلم الذي جئت تطلبه».

ومن هنا كان السَّلف ـ رحمهم الله ـ يعتنون بتعلُّم الأدب، كما يعتنون بتعلُّم العلم.

قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كانوا يتعلَّمون الهدي كما يتعلَّمون العلم».

بل إنَّ طائفةً منهم يُقدِّمون تعلُّمه علىٰ تعلُّم العلم.

قال مالك بن أنس لفتًى من قريش: «يا ابن أخي، تعلَّمِ الأدب قبل أن تتعلَّمَ العلم».

وكانوا يُظهِرون حاجتهم إليه.

قال مَخْلَد بنُ الحسين لابنِ المبارك يومًا: «نحن إلىٰ كثيرٍ من الأدب أحوج منَّا إلىٰ كثير من العلم».

وكانوا يُوصون به، ويُرشدون إليه.

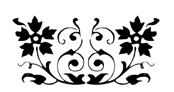
قال مالكٌ: «كانت أُمِّي تُعَمِّمُني، وتقول لي: ٱذهبْ إلىٰ ربيعةَ ـ تعني ابنَ ابي عبد الرحمن فقيهَ أهل المدينة في زمنه ـ فتعلَّمْ من أدبه قبل علمه».

وإنما حُرِم كثيرٌ من طلبة العصر العلمَ بتضييع الأدب، فترىٰ

أحدهم متَّكئًا بحضرة شيخه، بل يمدُّ إليه رجليه، ويرفع صوته عنده، ولا يمتنع عن إجابة هاتفه الجوَّال أو غيره، فأيُّ أدبٍ عند هٰؤلاء ينالون به العلم؟!

أشرفَ اللَّيث بن سعدٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ أصحاب الحديث، فرأىٰ منهم شيئًا كأنَّه كرهه، فقال: «ما هٰذا؟! أنتم إلىٰ يسيرٍ من الأدب، أحوج منكم إلىٰ كثيرٍ من العلم».

فماذا يقول اللَّيث لو رأىٰ حال كثيرٍ من طلَّاب العلم في هٰذا العصر؟!



المعقِد الحادي عشر
صيانة العلم عمَّا يَشين، ممَّا يُخالف المروءة ويخرِمها

من لم يَصُنِ العلمَ لم يَصُنْهُ العلمُ ـ كما قال الشَّافعيُّ ـ، ومن أخلَّ بالمروءة بالوقوع فيما يَشين فقد ٱستخفَّ بالعلم، فلم يُعظِّمه ووقع في البَطالة، فتفضي به الحال إلىٰ زوال ٱسم العلم عنه.

قال وهب بن مُنبِّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يكون البطَّال من الحكماء».

لا يُـدرِكُ الـعـلـمَ بـطَّـالٌ ولا كَـسِـلٌ
ولا مـلـولٌ ولا مـن يَـألَـفُ الـبَـشَـرا

وجِماع المروءة ـ كما قاله ابن تيميَّة الجدُّ في «المحرَّر»، وتبعه حفيده في بعض فتاويه ـ: «استعمال ما يُجمِّله ويَزِينه، وتجنبُ ما يُدنِّسه ويَشِينه».

قيل لأبي محمَّد سفيانَ بنِ عُيَيْنة: قد ٱستنبطتَ من القرآن كلَّ شيءٍ؛ فأين المروءة فيه؟ فقال: «في قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]؛ ففيه المروءة، وحسن الأدب، ومكارم الأخلاق».

ومِن أَلْزَمِ أدبِ النَّفس للطَّالب: تحلِّيه بالمروءة، وما يحمِل عليها، وتنكُّبُه خوارمها الَّتي تخلُّ بها كحلق لحيته؛ فقد عدَّه في خوارم المروءة ابن حجر الهيتميُّ من الشَّافعيَّة، وابنُ عابدين من الحنفيَّة.

أو كثرةِ الاْلتفات في الطَّريق، وعدَّه من خوارمها ابنُ شهابٍ الزُّهريُّ، وإبراهيمُ النَّخعيُّ من المتقدِّمين.

أو مدِّ الرِّجلين في مَجْمَعِ النَّاس من غير حاجةٍ ولا ضرورةٍ داعيةٍ، وعدَّه من الخوارم جماعةٌ، منهم أبو بكرٍ الطَّرطوشيُّ من المالكيَّة، وأبو محمَّد ابنُ قدامة، وأبو الوفاء ابنُ عقيل من الحنابلة.

أو صحبةِ الأراذل والفسَّاق والمُجَّان والبطَّالين، وعدَّه من خوارم المروءة جماعةٌ، منهم أبو حامد الغزَّاليُّ، وأبو بكر ابنُ الطَّيِّب من الشَّافعيَّة، والقاضي عياض اليَحصُبيُّ من المالكيَّة.

أو مصارعةِ الأحداث والصِّغار، وعدَّه من الخوارم ابنُ الهُمَام، وابنُ نُجيمٍ من الحنفيَّة.

ومن أخلَّ بمروءته وهو ينتسب إلىٰ العلم، فقد ٱفتضح عند الخاصِّ والعامِّ، ولم يَنَلْ من شرف العلم إلَّا الحطام.

المعقِد الثَّاني عشر
ٱنتخاب الصُّحبة الصَّالحة له

فالإنسان مدنيٌّ بالطَّبع، واتِّخاذ الزَّميل ضرورةٌ لازمةٌ في نفوس الخلق، فيحتاج طالب العلم إلىٰ معاشرة غيره من الطُّلَّاب؛ لِتُعِينَه هٰذه المعاشرة علىٰ تحصيل العلم والاجتهاد في طلبه.

والزَّمالة في العلم إن سَلِمت من الغوائل نافعةٌ في الوصول إلىٰ المقصود.

ولا يَحسن بقاصد العلا إلَّا ٱنتخاب صحبةٍ صالحةٍ تُعينه؛ فإنَّ للخليل في خليله أثرًا.

قال أبو داود والتِّرمذيُّ ـ والسِّياق لأبي داود ـ: حدَّثنا ابن بشَّار، حدَّثنا أبو عامر وأبو داود، قالا: حدَّثنا زهير بن محمَّد، قال: حدَّثني موسىٰ بن وردان عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**الرَّجل علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم من يُخالل**».

يقول الرَّاغب الأصفهانيُّ: «ليس إعداء الجليس لجليسه بمقاله وفعاله فقط، بل بالنَّظر إليه».

لا تـصـحـبِ الـكـسـلانَ فـي حـالاتـه
كـم صـالـحٍ بـفـسـادِ آخـرَ يَـفْـسُـدُ
عـدوىٰ الـبـليـدِ إلىٰ الـجـليـدِ سـريـعـةٌ
كـالـجـمـرِ يـوضـعُ فـي الـرَّمـاد فـيـخْـمُـدُ

والجليد هو الجادُّ الحازم.

وإنَّما يُختار للصُّحبة من يُعاشِر للفضيلة لا للمنفعة ولا للَّذَّة؛ فإنَّ عقد المعاشرة يُبرم علىٰ هٰذه المطالب الثَّلاثة: الفضيلة والمنفعة واللَّذَّة ـ كما ذكره شيخ شيوخنا محمد الخضر بن حسين في «رسائل الإصلاح»، فانتخب صديق الفضيلة زميلًا؛ فإنَّك تُعْرَفُ به.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «اعتبروا الرَّجلَ بمن يُصاحِب؛ فإنَّما يُصاحِب الرَّجل من هو مثله».

وأنشد أبو الفتح البُستيُّ لنفسه:

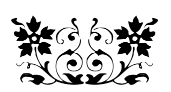
إذا مـا ٱصـطـنـعـت ٱمـرأً فـلـيـكـن
شـريـف الـنِّـجـار زكـيَّ الـحَـسَـبْ
فـنـذل الـرِّجـال كـنـذل الـنَّـبـات
فـلا لـلـثِّـمـار ولا لـلـحـطـبْ

ويقول ابن مانعٍ رَحِمَهُ اللهُ في «إرشاد الطُّلَّاب» ـ وهو يوصي طالب العلم ـ:

«ويَحْذَر كلَّ الحذر من مخالطة السُّفهاء وأهلِ المجون والوقاحة وسيِّئي السُّمعة والأغبياء والبُلداء؛ فإنَّ مخالطتهم سبب الحرمان وشقاوة الإنسان».

وكأنَّ هٰذا عينُ قولِ سفيان بن عُيَيْنة: «إنِّي لأحرِم جلسائي الحديثَ الغريب لموضع رجلٍ واحدٍ ثقيلٍ».

فقد يُحرم المتعلِّم العلمَ لأجل صاحبه، فاحذر هٰذا الصِّنف ـ وإن تزيَّا بزَيِّ العلم ـ فإنَّه يُفسدك من حيث لا تُحِسُّ.



المعقِد الثَّالثَ عشرَ
بذل الجهد في تحفُّظِ العلم، والمذاكرة به، والسُّؤال عنه

إذ تلقِّيه عن الشُّيوخ لا ينفع بلا حفظٍ له، ومذاكرةٍ به، وسؤالٍ عنه؛ فهٰؤلاء تُحقِّق في قلب طالب العلم تعظيمَه؛ بكمال الاَلتفات إليه والاشتغال به، فالحفظ خلوةٌ بالنَّفس، والمذاكرة جلوسٌ إلىٰ القرين، والسُّؤال إقبالٌ علىٰ العالم.

فبالحفظ يُقرَّرُ العلم في القلب، وينبغي أن يكون جُلُّ هِمَّة الطَّالب مصروفًا إلىٰ الحفظ والإعادة، كما يقوله ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صيد خاطره».

ولم يزلِ العلماء الأعلام يحضُّون علىٰ الحفظ ويأمرون به.

قال عبيد الله بن الحسن: «وجدت أحضر العلم منفعةً: ما وعيتُه بقلبي ولُكْتُه بلساني».

وسمعت شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «حفظنا قليلًا وقرأنا كثيرًا، فانتفعنا بما حفظنا أكثرَ من اَنتفاعنا بما قرأنا».

لـيـس بـعـلـمٍ مـا حـوىٰ الـقِـمَـطْـرُ
مـا الـعـلـمُ إلا مـا حـواه الـصَّـدرُ

والمتلمِّس للعلم لا يستغني عن الحفظ، ولا يجمُل به أن يُخليَ نفسه منه، وإذا قدِر علىٰ ما كان يصنع ابن الفرات ﵀ فليأخذ به؛ فقد كان لا يترك كلَّ يومٍ إذا أصبح أن يحفظ شيئًا وإن قلَّ، ومن عقل هٰذا المعنىٰ لم يزل من الحفظ في ٱزدياد، فلا ينقطع عنه حتَّىٰ الموت، كما اتَّفق ذلك لابن مالك ﵀ صاحبِ «الألفيَّة النَّحوية» فإنَّه حفظ في يوم موته خمسةَ شواهدَ.

وبالمذاكرة تدوم حياة العلم في النَّفس، ويقوىٰ تعلُّقه بها، والمراد بالمذاكرة مدارسة الأقران.

وقد أُمرنا بتعاهد القرآن الَّذي هو أيسر العلوم.

قال البخاريُّ ﵀: حدَّثنا عبد الله بن يوسف، قال: أخبرنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر ﵄؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّما مَثَلُ صاحبِ القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلَة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت**».

ورواه مسلمٌ من حديث مالكٍ به نحوه.

قال ابن عبد البر ﵀ في كتابه «التَّمهيد» عند هٰذا الحديث:

«وإذا كان القرآن الميسَّر للذِّكر كالإبل المعقَّلَةِ، من تَعَاهَدَها أمسكها، فكيف بسائر العلوم؟!»

وكان الزُّهريُّ ﵀ يقول: «إنَّما يُذهِب العلمَ النِّسيانُ، وتركُ المذاكرة».

وبالسُّؤال عن العلم تُفتتحُ خزائنه.

قال الزُّهريُّ ﵀: «إنَّما هٰذا العلم خزائنُ، وتَفْتَتِحها المسألة».

وحُسْن المسألة نصف العلم، والسُّؤالات المصنَّفة ـ كمسائلِ أحمدَ المرويَّةِ عنه ـ برهانٌ جليٌّ علىٰ عظيم منفعة السُّؤال.

وقِلَّةُ الإقبال علىٰ العالم بالسُّؤال إذا ورد علىٰ بلدٍ، تَكْشِفُ مبلغَ العلم فيه، فهٰذا سفيان الثَّوريُّ ﵀ يقدُم عسقلان فيمكث ثلاثًا لا يسأله إنسانٌ عن شيءٍ، فيقول لروَّادِ بنِ الجرَّاح ـ أحدِ أصحابه ـ: «اِكْتَرْ لي أخرجْ من هٰذا البلد، هٰذا بلدٌ يموت فيه العلم».

فمن لقي شيخًا فليغتنم لقاءَه بالسُّؤال عما يُشْكِلُ عليه ويَحتاج إليه، لا سؤالَ متعنِّتٍ ممتحنٍ.

وهٰذه المعاني الثَّلاثة للعلم: بمنزلة الغرس للشَّجر وسقيه وتنميته بما يحفظ قوَّته ويدفع آفته، فالحفظ غَرس العلم، والمذاكرة سقيه، والسُّؤال عنه تنميته.

المعقِد الرَّابعَ عشرَ

إكرام أهل العلم وتوقيرهم

إنَّ فضل العلماء عظيمٌ، ومنصبهم منصبٌ جليلٌ؛ لأنَّهم آباء الرُّوح، فالشَّيخ أبٌ للرُّوح كما أنَّ الوالد أبٌ للجسد، وفي قراءة أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه: (النَّبيُّ أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم)، والأُبوَّة المذكورة في هٰذه القراءة ليست أُبوَّة النَّسب إجماعًا، وإنما هي الأُبوَّة الدِّينيَّة الرُّوحيَّة؛ فالاعتراف بفضل المعلِّمين حقٌّ واجبٌ.

قال شعبة بن الحجَّاج: «كلُّ من سمعت منه حديثًا، فأنا له عبدٌ».

واستنبط هٰذا المعنىٰ من القرآن محمَّد بن عليٍّ الأُدْفُويُّ فقال رحمه الله: «إذا تعلَّم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد، فهو له عبدٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: الآية ٦٠]، وهو يوشع بن نونٍ، ولم يكن مملوكًا له، وإنَّما كان مُتَلْمِذًا له، متَّبعًا له، فجعله الله فتاه لذلك».

وقد أمر الشَّرع برعاية حقِّ العلماء؛ إكرامًا لهم، وتوقيرًا، وإعزازًا.

قال أحمد في «المسند»: حدَّثنا هارون، قال: حدَّثنا ابن وهب، قال: حدَّثني مالك بن الخير الزِّياديُّ، عن أبي قَبيل المَعَافريِّ، عن عبادةَ بنِ الصَّامت ﵁، أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«ليس من أُمَّتي من لم يُجِلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقَّه»**.

أمسك ابن عبَّاس ﵄ يومًا بركاب زيد بن ثابتٍ ﵁، فقال زيدٌ: «أتُمسِكُ لي وأنت ابنُ عمِّ رسولِ الله ﷺ؟» فقال ابن عباس: «إنَّا هكذا نصنع بالعلماء».

ونقل ابن حزم الإجماعَ علىٰ توقير العلماء وإكرامهم.

والبصير بالأحوال السَّلفيَّة يقف علىٰ حميد أحوالهم في توقير علمائهم؛ فقد كان أصحاب النَّبيِّ ﷺ إذا جلسوا إليه كأنَّما علىٰ رؤوسهم الطَّير لا يتحركون.

وقال محمَّد بن سيرين: «رأيتُ عبد الرَّحمن بن أبي ليلىٰ، وأصحابُه يُعظِّمونه ويُسوِّدونه ويُشرِّفونه مثلَ الأمير».

وقال يحيى الموصليُّ: «رأيت مالك بن أنس غيرَ مرَّةٍ، وكان بأصحابه من الإعظام له والتَّوقير له، وإذا رفع أحدٌ صوته صاحوا به».

فمن الأدب اللَّازم للشَّيخ علىٰ المتعلِّم ـ ممَّا يدخل تحت هٰذا الأصل ـ التَّواضعُ له، والإقبالُ عليه، وعدمُ الٱلتفاتِ عنه، ومراعاةُ أدب الحديث معه، وإذا حدَّث عنه عظَّمه من غير غُلوٍّ، بل يُنزلُهُ منزلته؛ لئلَّا يَشينه من حيث أراد أن يمدحه، وليشكرْ تعليمَه ويدعُ له، ولا يُظهرِ الٱستغناءَ عنه، ولا يؤذِهِ بقولٍ أو فعلٍ، ولْيتلطَّفْ في تنبيهه علىٰ خطئه إذا وقعت منه زلَّةٌ.

وممَّا تُناسب الإشارة إليه هنا ـ باختصارٍ وجيزٍ ـ معرفة الواجب إزاءَ زلَّة العالم، وهو ستَّة أمور:

الأوَّل: التَّثبُّت في صدور الزَّلَّة منه.

والثَّاني: التَّثبُّت في كونها خطأً، وهٰذه وظيفة العلماء الرَّاسخين، فيُسألون عنها.

والثَّالث: ترك ٱتِّباعه فيها.

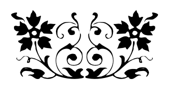
والرَّابع: التماس العذر له بتأويلٍ سائغٍ.

والخامس: بذل النُّصح له بلطفٍ وسرٍّ، لا بعنفٍ وتشهيرٍ.

والسَّادس: حفظ جَنابه، فلا تُهدر كرامته في قلوب المسلمين.

وممَّا يُحذَّرُ منه ممَّا يتَّصل بتوقير العلماء ما صورته التَّوقير ومآله الإهانة والتَّحقير؛ كالازدحامِ علىٰ العالم، والتَّضييقِ عليه،

وإلجائه إلىٰ أعسر السُّبل، فما مات هُشيم بن بَشيرٍ الواسطيُّ المحدِّثُ الثِّقةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا بهٰذا، فقد ٱزدحم أصحاب الحديث عليه فطرحوه عن حماره، فكان سببَ موته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



المعقِد الخامسَ عشرَ
ردُّ مُشْكِلِه إلىٰ أهله

فالمعظِّم للعلم يُعوِّل علىٰ دَهاقنته والجهابذةِ من أهله لحلِّ مشكلاته، ولا يُعَرِّض نفسه لما لا تُطيق؛ خوفًا من القول علىٰ الله بلا علمٍ، والافتراءِ علىٰ الدِّين، فهو يخاف سَخْطَة الرَّحمن قبل أن يخاف سَوط السُّلطان؛ فإنَّ العلماء بعلمٍ تكلَّموا، وببصرٍ نافذٍ سكتوا، فإن تكلَّموا في مُشْكِلٍ فتكلَّمْ بكلامهم، وإن سكتوا عنه فَلْيَسَعْكَ ما وَسِعهم.

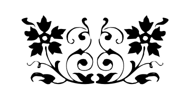
ومن أشقِّ المُشْكلاتِ الفتنُ الواقعة، والنَّوازلُ الحادثة، الَّتي تتكاثر مع ٱمتداد الزَّمن، والنَّاس في هٰذا الباب طرفان ووسَطٌ؛ فقومٌ أعرضوا عن ٱستفتاء العلماء فيها، وفَزِعوا إلىٰ الأهواء والآراء، يستمِدُّونها من هيجان الخطباء، ورِقَّة الشُّعراء، وتحليلاتِ السِّياسيين، وإرجافاتِ المنافقين، وقومٌ يَعْرضونها علىٰ العلماء، لكنَّهم لا يرتضون قالهم، ولا يرضون مقالهم، فكأنَّهم طلبوا جوابًا يوافق هوًى في نفوسهم، فلمَّا لم يجدوه مالوا عنهم.

والنَّاجون من نار الفتن، السَّالمون من وَهَج المحن، هم من فَزِع إلىٰ العلماء ولَزِم قولهم، وإن ٱشتبه عليه شيءٌ من قولهم أحسن الظَّنَّ بهم، فطرح قوله وأخذ بقولهم، فالتَّجربة والخبرة هم كانوا أحقَّ بها وأهلَها، وإذا ٱختلفت أقوالهم لزم قول جمهورهم وسوادهم؛ إيثارًا للسَّلامة؛ **فالسَّلامة لا يعدلها شيءٌ**.

وما أحسن قولَ ابن عاصمٍ في «مرتقىٰ الوصول»:

وواجبٌ في مشكلاتِ الفهمِ
تحسينُنا الظَّنَّ بأهل العلمِ

ومن جملة المشكلات ردُّ زلَّاتِ العلماء، والمقالاتِ الباطلة لأهل البدع والمخالفين؛ فإنَّما يتكلَّم فيها العلماء الرَّاسخون؛ بيَّنه الشاطبيُّ في «الموافقات»، وابنُ رجبٍ في «جامع العلوم والحكم»، وإذا تعرَّضتِ النَّاشئة والدَّهماء للدُّخول في هٰذا الباب تولَّدت فتنٌ وبلايا، كما هو مشاهد في عصرنا؛ فإنَّما نشأت كثيرٌ من الفتن حين تعرَّض للرَّد علىٰ زلَّات العلماء والمقالات المخالفة للشَّريعة بعضُ النَّاشئة الأغمار، والجادَّة السَّالمة: عرْضُها علىٰ العلماء الرَّاسخين، والاستمساك بقولهم فيها.



المعقِد السَّادسَ عشرَ
توقير مجالس العلم، وإجلال أوعيته

فمجالس العلماء كمجالس الأنبياء.

قال سهل بن عبد الله: «من أراد أن ينظر إلىٰ مجالس الأنبياء فلينظر إلىٰ مجالس العلماء، يجيءُ الرَّجل فيقول: يا فلان، أيُّ شيءٍ تقول في رجل حلف علىٰ ٱمرأته بكذا وكذا؟ فيقول: طَلَقَت ٱمرأته، ويجيءُ آخر فيقول: ما تقول في رجلٍ حلف علىٰ ٱمرأته بكذا وكذا؟ فيقول: ليس يحنَث بهٰذا القول، وليس هٰذا إلا لنبيٍّ أو لعالمٍ، فاعرفوا لهم ذلك».

وقال مالك بن أنسٍ: «إنَّ مجالس العلماء تُحتضن بالخشوع والسَّكينة والوقار».

وقد كان مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا أراد أن يُحدِّث توضَّأ وجلس علىٰ صدر فراشه، وسرَّح لحيته، وتمكَّن من جلوسه بوقارٍ وهيبةٍ، ثمَّ حدَّث.

وكان عبد الرَّحمن بن مهديٍّ لا يُتحدَّث في مجلسه، ولا يُبرىٰ فيه قلمٌ، ولا يَتبسَّم فيه أحدٌ.

وكان وكيع بن الجرَّاح في مجلسه كأنَّهم في صلاةٍ.

فعلىٰ طالب العلم أن يعرِف لمجالس العلم حقَّها، فيجلِسَ فيها جِلسة الأدب، ويصغي إلىٰ الشَّيخ ناظرًا إليه، فلا يلتفتُ عنه من غير ضرورةٍ، ولا يضطرب لضجَّةٍ يسمعها، ولا يعبَثُ بيديه أو رجليه، ولا يستَنِدُ بحضرة شيخه، ولا يتكئُ علىٰ يده، ولا يُكثر التَّنحنح والحركة، ولا يتكلم مع جاره، وإذا عطس خَفَض صوته، وإذا تثاءب ستر فمه بعد ردِّه جهده.

وينضمُّ إلىٰ توقير مجالس العلم إجلالُ أوعيته الَّتي يُحفظ فيها، وعمادها الكتب، فاللَّائق بطالب العلم: صونُ كتابه، وحفظه وإجلاله، والاعتناء به، فلا يجعله صندوقًا يحشوه بودائعه، ولا يجعله بوقًا، وإذا وضعه وضعه بلطفٍ وعنايةٍ.

رمىٰ إسحاق بن راهَوَيْه يومًا بكتابٍ كان في يده، فرآه أبو عبد الله أحمد ابن حنبلٍ فغضب، وقال: «أهكذا يُفعل بكلام الأبرار؟!».

ولا يتَّكئُ علىٰ الكتاب، أو يضعه عند قدميه، وإذا كان يقرأ فيه علىٰ شيخٍ رفعه عن الأرض وحمله بيديه.

المعقِد السَّابعَ عشرَ
الذَّبُّ عن العلم، والذَّود عن حِياضه

إنَّ للعلم حُرمةً وافرةً، توجب الٱنتصارَ له إذا تُعرِّض لجنَابه بما لا يصلحُ.

وقد ظهر هٰذا الٱنتصار عند أهل العلم في مظاهرَ؛ منها: الرَّدُّ علىٰ المخالف، فمن ٱستبانت مخالفته للشَّريعة رُدَّ عليه كائنًا من كان؛ حَمِيَّةً للدِّين، ونصيحةً للمسلمين.

ولم يزلِ النَّاس يردُّ بعضهم علىٰ بعضٍ ـ كما قال الإمام أحمد ـ، لكنَّ المرشَّح لذلك هم العلماء لا الدَّهماء، مع لزوم الأدب وترك الجور والظُّلم.

ومنها: هجرُ المبتدعِ ـ ذكره أبو يعلىٰ الفرَّاء إجماعًا ـ، فلا يُؤخذ العلم عن أهل البدع، لكن إذا ٱضْطُرَّ إليه فلا بأس، كما في الرِّواية عنهم لدىٰ المحدِّثين.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة الحفيد ـ مقرِّرًا أصلًا كبيرًا تَعْظُم الحاجة إليه في أزمنة الجاهليَّة والفتن ـ:

«فإذا تعذَّر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك، إلا بمن فيه بدعةٌ مضرَّتُها دون مضرَّة ذلك الواجب، كان تحصيل مصلحة الواجب مع مفسدةٍ مرجوحةٍ خيرًا من العكس».

ومنها: زجر المتعلِّم إذا تعدَّىٰ في بحثه، أو ظهر منه لَدَدٌ أو سوءُ أدبٍ.

كان عبد الرَّحمن بن مهديٍّ إن تحدَّث أحدٌ في مجلسه أو بُري قلمٌ، صاح ولبس نعليه ودخل.

وكان وكيعٌ إذا أنكر من أمر جلسائه شيئًا، ٱنتعل ودخل.

وشوهد هٰذا مرارًا من شيخ شيوخنا محمَّد بن إبراهيم آل الشَّيخ، فكم مرةٍ رُئي منصرفًا لمَّا سمع طالبًا يتشدَّق في مقاله، فأخذ نعليه وانصرف.

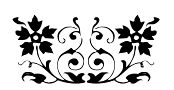
وحضر شابٌّ مجلس سفيان الثَّوريِّ، فجعل يترأَّسُ ويتكلَّم ويتكبَّر بالعلم، فغضب سفيان وقال: «لم يكن السَّلف هكذا، لم يكن السَّلف هكذا، كان أحدهم لا يدَّعي الإمامة، ولا يجلس في الصَّدر حتَّىٰ يطلب هٰذا العلم ثلاثين سنةً، وأنت تتكبَّر علىٰ من هو أسنُّ منك! قُم عنِّي، ولا أراك تدنو من مجلسي».

وكان ﵀ يقول: «إذا رأيت الشَّابَّ يتكلَّم عند المشايخ، وإن كان قد بلغ من العلم مبلغًا، فآيس من خيره؛ فإنَّه قليل الحياء».

وإن ٱحتاج المعلِّم إلىٰ إخراج المتعلِّم من مجلسه؛ زجرًا له، فليفعل كما فعل سفيان، وكما كان يفعله شعبة ﵀ مع عفَّانَ بن مسلمٍ في درسه.

وقد يُزجر المتعلِّم بعدمِ الإقبال عليه، وتركِ إجابته، فالسُّكوت جوابٌ؛ كما قال الأعمش.

ورأينا هٰذا كثيرًا من جماعةٍ من الشُّيوخ؛ منهم العلَّامة ابن بازٍ ﵀ فربَّما سأله سائلٌ عمَّا لا ينفعه، فترك الشَّيخ إجابته، وأمر القارئ أن يُواصل قراءته، أو أجابه بخلاف قصده.



المعقِد الثَّامنَ عشرَ
التَّحفُّظ في مسألة العالم

فرارًا من مسائل الشَّغْب، وحفظًا لهيبة العالم؛ فإنَّ من السُّؤال ما يُراد به التَّشغيبُ وإيقاظ الفتنة وإشاعة السُّوء، ومن آنس منه العلماء هٰذه المسائل لقي منهم ما لا يُعجبه، كما مرَّ معك في زجر المتعلِّم، فلا بدَّ من التَّحفُّظ في مسألة العالم، ولا يُفلح في تَحَفُّظه فيها إلَّا من أعمل أربعة أصولٍ:

أوَّلها: الفكر في سؤاله لماذا يسأل؟ فيكون قصده من السُّؤال التَّفقُّه والتَّعلم، لا التَّعنُّت والتَّهكُّم؛ فإنَّ من ساء قصده في سؤاله يُحرم بركةَ العلم، ويُمنع منفعته.

وفي النَّاس من يسأل وله في سؤاله قصدٌ باطنٌ، يريد التَّوصل به إلىٰ مقصودٍ له، فإذا غفل عنه المفتي وأفتاه بما يريد فَرِح به وأشاعه، وإذا تنبَّه إلىٰ قصده حال بينه وبين مرادِه، وزجره عن غيِّه.

قال القرافيُّ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتابه «الإحكام»:

«سُئلتُ مرةً عن عقد النِّكاح بالقاهرة، هل يجوز أم لا؟

فارتبت وقلت له ـ أي للسَّائل ـ: ما أفتيك حتىٰ تُبيِّن لي ما المقصود بهٰذا الكلام؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يعلم أنَّ عقد النِّكاح بالقاهرة جائزٌ، فلم أزل به حتَّىٰ قال: إنَّا أردنا أن نعقده خارج القاهرة فمُنعنا؛ لأنَّه ٱستحلالٌ ـ يعني نكاحَ تحليل، وهو نوع من الأنكحة المحرَّمة ـ فجئنا للقاهرة، فقلت له: لا يجوز، لا بالقاهرة ولا بغيرها».

ووقع مثل هٰذا لأبي العبَّاس ابن تيميَّة الحفيد في فتوىٰ تتعلق بأهل الذِّمة، ذكرها تلميذه البارُّ ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في كتابه «إعلام الموقِّعين»، رُدَّت عليه غير مرَّةٍ في وجهٍ غير الوجه السَّابق لها، فكان يقول: لا يجوز، حتَّىٰ قال في آخر مرَّةٍ: «هي المسألة المُعَيَّنة، وإن خرجت في عِدَّة قوالبَ».

أمَّا الأصل الثَّاني: فالتَّفطُّنُ إلىٰ ما يَسأل عنه، فلا تسأل عمَّا لا نفع فيه؛ إمَّا بالنَّظر إلىٰ حالك، أو بالنَّظر إلىٰ المسألة نفسها.

سأل رجلٌ أحمدَ ابن حنبلٍ عن يأجوجَ ومأجوجَ: أمسلمون هم؟ فقال له: «أحْكَمْتَ العلمَ حتَّىٰ تسأل عن ذا!».

ومثله السُّؤال عمَّا لم يقع، أو ما لا يُحدَّث به كلُّ أحدٍ، وإنَّما يُخصُّ به قومٌ دون قومٍ.

أمَّا الأصل الثَّالث: فالانتباه إلىٰ صلاحية حال الشَّيخ للإجابة عن سؤاله، فلا يَسأله في حالٍ تَمْنَعه، ككونه مهمومًا، أو متفكِّرًا، أو ماشيًا في طريقٍ، أو راكبًا سيَّارته، بل يتحيَّنُ طيب نفسه.

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سألت أبا الطُّفيل مسألةً فقال: «إنَّ لكلِّ مقامٍ مقالًا».

وسأل رجلٌ ابنَ المبارك عن حديثٍ وهو يمشي، فقال: «ليس هٰذا من توقير العلم».

وكان عبد الرَّحمن بنُ أبي ليلىٰ يكره أن يُسأل وهو يمشي.

أما الأصل الرَّابع: فتيقُّظ السَّائل إلىٰ كيفيَّة سؤاله، بإخراجه في صورةٍ حسنةٍ متأدِّبةٍ، فيُقدِّم الدُّعاء للشَّيخ ويُبجِّله في خطابه، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهلَ السُّوق وأخلاطَ العوام.

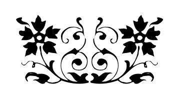
قال جعفر بن أبي عثمان: كنَّا عند يحيىٰ بن معين، فجاءه رجلٌ مستعجلٌ فقال: يا أبا زكريَّا، حدِّثني بشيءٍ أذكرك به، فقال يحيىٰ: «اذكرني أنَّك سألتني أن أحدِّثك فلم أفعل!».

وإذا تأمَّلتَ السُّؤالاتِ الواردةَ علىٰ أهل العلم اليوم، رأيتَ في كثيرٍ منها سلبَ التَّحفُّظِ وسَفْسَافَ الأدب، فترىٰ من يسأل متهكِّمًا، أو يسأل محتقرًا، يسألون عمَّا لم يقع، أو ما وقع ولا

ينفع، لا يتخيَّرون وقت الإيراد المناسب، ولا يتلطَّفون في عرض المَطَالِب ، فسؤالاتهم مفاتيح الفتن، وأسباب المحن، وويلٌ لهم ممَّا يصنعون!

وما أحوج هٰؤلاء إلىٰ مقالة زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا سأله رجلٌ عن شيءٍ فخلَّط عليه، فقال زيد: «اذهب فتعلَّم كيف تسأل، ثم تعالَ فَسَلْ».

وكم هم المحتاجون اليوم إلىٰ مثل مقالة زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؟!



المعقِد التَّاسعَ عشرَ

شَغَفُ القلب بالعلم وَغَلَبَتُه عليه

فصدق الطَّلب له يُوجِب محبَّته، وتعلُّقَ القلب به، ولا ينال العبدُ درجةَ العلم حتَّىٰ تكون لذَّته الكبرىٰ فيه.

قال ابن القيِّم ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في «مفتاح دار السَّعادة»:

«ومن لم يُغَلِّبْ لذَّةَ إدراكه وشهوته علىٰ لذَّةِ جسمه وشهوة نفسه، لم ينل درجة العلم أبدًا».

وإنَّما تُنال لذَّة العلم بثلاثة أمور، ذكرها أبو عبد الله ابن القيِّم ﵀ في كتابه السَّالف:

أحدِها: بذل الوُسْع والجَهْد.

وثانيها: صدق الطَّلب.

وثالثِها: صحَّة النِّيَّة والإخلاص.

ولا تتمُّ هٰذه الأمور الثَّلاثة، إلَّا مع دفع كلِّ ما يُشْغِلُ عن القلب.

ومن سَبَرَ هٰذه اللَّذَّة في أحوال السَّابقين من علماء الأُمَّة، رأىٰ عجبًا، فلسان أحدهم:

ما لـذَّتي إلا رواية مسندٍ قد قُيِّدت بفصاحة الألفاظِ
ومجالسٌ فيها تَحِلُّ سكينةٌ ومذاكراتُ معاشرِ الحفَّاظِ

إنَّ لذَّة العلم فوق لذَّة السُّلطان والحكم التي تتطلَّع إليها نفوسٌ كثيرةٌ، وتُبذَل لأجلها أموالٌ وفيرةٌ، وتُسفَك دماءٌ غزيرةٌ.

بات أبو جعفرٍ النَّسفيُّ مهمومًا من ضيق البال، وسوءِ الحال، وكثرةِ العيال، فوقع في خاطره فرعٌ من فروع مذهبه ـ وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ حنفيًّا ـ فأُعجب به، فقام يرقص في داره، ويقول: «أين الملوك وأبناء الملوك؟! أين الملوك وأبناء الملوك؟!».

إذا خاض في بحر التَّفكُّر خاطري علىٰ دُرَّةٍ من معضِلاتِ المطالبِ
حَقَرْتُ ملوك الأرض في نيل ما حَوَوْا ونِلتُ المنىٰ بالكُتْب لا بالكتائبِ

ولهذا كانت الملوك تتوقُ إلىٰ لذَّة العلم، وتُحِسُّ فقدَها، وتطلُب تحصيلَها.

قيل لأبي جعفرٍ المنصور ـ الخليفةِ العباسيِّ المشهور، الَّذي كانت ممالكه تملأ الشَّرق والغرب ـ: هل بقي من لذَّاتِ الدُّنيا شيءٌ لم تنله؟ فقال ـ وهو مستوٍ علىٰ كرسيِّه وسرير ملكه ـ: «بقيت خَصلةٌ: أن أقعُدَ علىٰ مِصْطَبَةٍ، وحولي أصحاب الحديث ـ أي طلَّاب العلم ـ فيقول المستملي: من ذكرتَ رحمك الله؟»

يعني فيقول: حدَّثنا فلانٌ، قال: حدَّثنا فلانٌ، ويَسُوق الأحاديث المسندة.

فانظر إلىٰ شدَّةِ ٱفتقارِ هذا الخليفةِ إلىٰ لذَّة العلم، وطلبه تحصيلَها، وَجَوعَتَهُ إليها.

ومتىٰ عُمِر القلب بلذَّة العلم سقطت لذَّاتُ العادات، وذهَلَت النَّفسُ عنها، فالنَّضرُ بنُ شُميل يقول: «لا يجد المرء لذَّة العلم حتىٰ يجوع وينسىٰ جوعه».

بل تستحيل الآلامُ لذَّةً بهٰذه اللَّذَّة.

ومحمَّد بن هارون الدِّمشقيُّ يقول:

لمحبرةٌ تُجالسني نهاري
أحبُّ إليَّ من أُنسِ الصَّديقِ

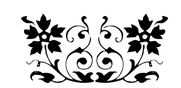
ورُزمةُ كاغَدٍ في البيت عندي
أحبُّ إلي من عَدل الدَّقيقِ

ولـطـمـةُ عـالـمٍ فـي الـخـدِّ مـنِّـي
ألــذُّ لــديَّ مــن شــرب الــرَّحــيــقِ

ولا تعجب؛ فما هٰذه الأحوال إلا مسُّ عشقِ العلم؛ فابن القيِّم يقول في «روضة المحبِّين»:

«وأمَّا عُشَّاق العلم فأعظم شغفًا به وعِشْقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يشغَلُهُ عنه أجملُ صورةٍ من البشر».

فأين هٰذا الشَّغف ـ يا طلَّابَ العلم ـ ممن يُقدِّم حظَّه من عرسه علىٰ حظِّه من درسه؟ ويكون جلوسه إلىٰ السُّمَّار وشيوخ القمراءِ أحبَّ إليه من الجلوس إلىٰ العلماء!، وتقوىٰ عزيمته للتَّنقُّل في الفَلَواتِ، ولا تقوىٰ علىٰ السَّير في نقل المعلومات، وينهض نشيطًا لقنص الطَّير ويرقد كسلًا عن صيد الخير! فما حظُّ هٰؤلاء ـ وكثيرٌ هم ـ ما حظُّهم من تعظيم العلم وقلوبهم مأسورة بمحبة غيره؟!



المعقِد العشرون
حفظ الوقت في العلم

إذا كان العلم أشرفَ مطلوبٍ، والعمر يُطوىٰ كجليدٍ يذوب، فعين العقل حفظ الوقت فيه، والخوف من تقضِّيه بلا فائدة، والسُّؤال عنه يوم القيامة يحملني وإيَّاك علىٰ المبالغة في رعايته.

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «صيد خاطره»:

«ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يُضيِّع منه لحظةً في غير قُربةٍ، ويُقدِّم فيه الأفضل فالأفضل من القول والعمل».

ومن هنا عظُمت رعاية العلماء للوقت، حتىٰ قال محمَّد بن عبد الباقي البزَّاز: «ما ضيَّعتُ ساعةً من عمري في لهوٍ أو لعبٍ».

وقال أبو الوفاء ابن عقيل ـ الَّذي صنَّف كتاب الفنون في ثمانمائة مجلَّدٍ ـ: «إنِّي لا يحِلُّ لي أن أُضيِّعَ ساعةً من عمري».

وبَلَغَتْ بهمُ الحال أن يُقرأ عليهم حال الأكل؛ فلقد كان أحمد بن سليمان البُلقاسيُّ ـ المتوفىٰ عن ثمانية وعشرين سنة ـ

يُقرئ القراءاتِ في حال أكله؛ خوفًا من ضياع وقته في غيرها، فكان أصحابه يقرأون عليه وهو يتناول مأكله ومشربه.

بل كان يُقرأ عليهم وهم في دار الخلاء؛ فكان ابن تيميَّة الجدُّ رحمه الله إذا دخل الخلاء لقضاء حاجةٍ قال لبعض من حوله: «اقرأ في هٰذا الكتاب، وارفع صوتك».

وتجلَّت هٰذه الرِّعاية للوقت عند القوم ـ رحمهم الله ـ في معالمَ عدَّةٍ، لم تبلُغها الحضاراتُ الإنسانيَّة قاطبةً.

منها: كثرة دروسهم؛ فقد كان النَّوويُّ رحمه الله يقرأ كلَّ يومٍ ٱثني عشر درسًا علىٰ مشايخه، والشَّوكانيُّ ـ رحمه الله صاحب «نيل الأوطار» ـ تبلغ دروسه في اليوم واللَّيلة ثلاثة عشر درسًا؛ منها ما يأخذه عن مشايخه، ومنها ما يأخذه عنه تلامذته.

وأربىٰ محمود الآلوسيُّ صاحب التَّفسير عليهم جميعًا، فقد كان يُدرِّس في اليوم أربعة وعشرين درسًا، ولمَّا ٱشتغل بالتَّفسير والإفتاء نقصت إلىٰ ثلاثة عشر درسًا.

ثمَّ رأيتُ في ترجمة محمد بن أبي بكرٍ ابنِ جماعةَ أنَّ دروسه تبلغ في اليوم واللَّيلة نحوَ خمسين درسًا.

ومنها: كثرة مدروساتهم؛ فقد دَرَس ابن التَّبَّان «المدوَّنة»

نحو ألف مرَّةٍ، وربما وُجد في بعض كتب عبَّاسٍ بنِ الفارسيِّ بخطِّه: دَرَسته ألف مرَّةٍ.

وكرَّر غالب بن عبد الرَّحمن المعروف بابن عطيَّة ـ والد صاحب التَّفسير المشهور ـ «صحيحَ البخاريِّ» سبعَمائِة مرَّةٍ.

ومنها: كثرة مكتوباتهم؛ فأحمد بن عبد الدَّائم المقدسيُّ ـ أحد شيوخ العلم من الحنابلة ـ كتب بيده ألفي مجلَّدٍ، ووقع مثله لابن الجوزيِّ.

ومنها: كثرة مقروءاتهم؛ فابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ طالع وهو بعدُ في الطَّلب عشرين ألف مجلَّدٍ.

ومنها: كثرة شيوخهم؛ فالَّذين جاوز عددُ شيوخهم الألفَ كثيرٌ في هٰذه الأُمَّة، وأعجب ما ذُكر أنَّ أبا سعدٍ السَّمعانيَّ بلغ عددُ شيوخه سبعة آلاف شيخٍ، قال ابن النَّجار في «ذيل تاريخ بغداد»: «وهٰذا شيءٌ لم يبلغه أحد».

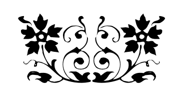
ومنها: كثرة مسموعاتهم ومقروءاتهم علىٰ شيوخهم من التَّصانيف المطوَّلة والأجزاء الصَّغيرة؛ فقد تُعَدُّ بالآلاف المؤلَّفة، كما وقع لابن السَّمعانيِّ المذكور وصاحبِهِ ابن عساكر في جماعةٍ آخرين.

ومنها: كثرة مصنَّفاتهم؛ حتىٰ عُدَّت ألفَ مصنَّفٍ لجماعةٍ من

علماء هٰذه الأُمَّة، منهم عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس، وأبو الفرج ابن الجوزيِّ.

فاحفظ أيُّها الطَّالب وقتك؛ فلقد أبلغ الوزيرُ الصَّالح ابن هُبيرة في نصحك بقوله:

والوقتُ أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه
وأَراه أسهلَ ما عليك يضيعُ



الخاتمة

إلىٰ هنا بلغ القول التَّمام، وحَسُن قطع الكلام بالختام، فيا شُداة العلم وطلَّابه، ويا قُصَّاد الفقه وأربابه، ٱمتثلوا معاقد التَّعظيم، وأنتم تُقبلون علىٰ مقاعد التَّعليم، تجدوا نفعه وتحمَدوا عاقبته، وإيَّاكم والتَّهاونَ بها والعزوفَ عنها؛ فإنَّها مفتاح العلم ومِرقاة الفهم، فبها تُجمع العلوم وتؤصَّل، وبها تُيسَّر الفنون وتحصَّل.

فشمِّروا عن ساعد الجِدِّ، ولا تُشغلوا بمَيعةِ الجَدِّ، واحفظوا ـ رحمكم الله ـ قول أبي عبد الله ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«طالِبُ النُّفوذِ إلىٰ الله والدَّار الآخرة، بل إلىٰ كل علمٍ وصناعةٍ ورئاسةٍ، بحيث يكون رأسًا في ذلك مقتدًى به فيه = يحتاج أن يكون شجاعًا مقدامًا، حاكمًا علىٰ وَهْمِه، غيرَ مقهورٍ تحت سلطان تخيُّله، زاهدًا في كل ما سوىٰ مطلوبه، عاشقًا لما تَوَجَّه إليه، عارفًا بطريق الوصول إليه، والطُّرق القواطع عنه، مقدامَ الهِمَّة، ثابتَ الجَأش، لا يَثْنيه عن مطلوبه لومُ لائمٍ، ولا عذل عاذلٍ، كثيرَ السُّكون، دائمَ الفكر، غيرَ مائلٍ مع لذَّةِ المدح،

ولا ألم الذَّم، قائمًا بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفِزُّه المعارضات، شعاره الصَّبر، وراحته التَّعب، محبًّا لمكارم الأخلاق، حافظًا لوقته، لا يُخالط النَّاس إلا علىٰ حذرٍ، كالطَّائر الَّذي يلتقط الحَبَّ بينهم، قائمًا علىٰ نفسه بالرَّغبة والرَّهبة، طامعًا في نتائج الٱختصاص علىٰ بني جنسه، غيرَ مرسِلٍ شيئًا من حواسِّه عبثًا، ولا مسرِّحًا خواطره في مراتب الكون، ومِلاكُ ذلك هجرُ العوائد، وقطعُ العلائق الحائلةِ بينك وبين المطلوب» ٱنتهىٰ كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فما أجمَلَه ذكرىٰ وتبصرةً!!

اللَّهمَّ يسِّرْ لنا تعظيمَ العلم وإجلالَه، واجعلنا ممَّن سعىٰ له كذلك فناله، اللَّهمَّ إنَّا نسألك علمًا نافعًا، ونعوذ بك من علمٍ لا ينفع، اللَّهمَّ علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علمًا وعملًا، اللَّهمَّ ٱقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تُبلِّغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدُّنيا، اللَّهمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا أبدًا ما أحييتنا، واجعله الوارث منَّا، اللَّهمَّ لا تجعلِ الدُّنيا أكبر هَمِّنا، ولا مبلغَ علمنا، ولا إلىٰ النَّار مصيرنا، ولا تسلِّط علينا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا.

